الفصل الثالث

السودان في الذاكرة الأمريكية

obeikan.com

obeikan.com

تأطير العلاقات الأمريكية السودانية الحديثة

■ ■ ■

تتميّز العلاقات السودانيّة الأمريكيّة بالتوتر وعدم الاستقرار وهذا واضح خلال العقدين الماضيين منذ عام ١٩٩٣ حين صنف السودان كدولة داعمة للإرهاب، ثمّ في عام ١٩٩٦م حين علقت الولايات المتحدة أعمال سفارتها في الخرطوم؛ ثمّ في العام الذي تلاه ضربت الولايات المتحدة حصارا اقتصاديا على السودان لأسباب مرتبطة بمحاربة الإرهاب والدول المؤيدة له، وذلك في أكتوبر عام ١٩٩٧م. وبذلك حرم على القطاعات العامّة والخاصة في الولايات المتحدة العمل أو التعامل مع السودان.

وعقب هجوم بعض الجماعات الإرهابية المرتبطة بالإسلام على سفارتي الولايات المتحدة في شرق إفريقيا – نيروبي ودار السلام في ٧ أغسطس ١٩٩٨م اتهمت الولايات المتحدة السودان بإيواء الإرهابيين وتسهيل تحركاتهم. ففي ٢٠ أغسطس من نفس العام، ظهر الرئيس الأمريكي بيل كلينتون على شاشة التلفزيون القومي ليخبر المواطنين أنه أمر الجيش الأمريكي بالبدء فيما أسماه بعملية الصولة اللانهائية (Operation Infinite) Reach وبمقتضاها أطلقت الصواريخ العابرة على أفغانستان والسودان، وفي السودان تم تدمير مصنع أدوية الشفاء الذي كان يغطي ٥٠٪ من احتياجات السوق المحلي من الأدوية. ثمّ تبع ذلك جفاء في العلاقات بين البلدين حتّى عام ٢٠٠١ حين بدأ الجانبان التعاون في مسألة مكافحة الإرهاب. .

ويذكر كتاب جديد ظهر قبل شهور للكاتب الأمريكي ريتشارد كوكيت

(Richard Cockett) أنّه عقب هجمات ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١، هددت إدارة بوش الحكومة السودانية بتسليم كلما عندها من ملفات أو معرفة عن منظمة القاعدة وإلا سوف تدمر القوات الأمريكية المصفاة البترولية في بورتسودان،[١] بينما يذكر كاتب آخر واسمه لورنس رايت في كتابه المشهور (The Looming Tower) أن حكومة بوش خيرت حكومة السودان عقب هجمات ١١ سبتمبر بين الحرب أو إعطاء كلما تعرفها عن منظمة القاعدة.[٢] ويتفق الكاتبان على أنّ ردّ الحكومة السودانية كان إيجابيا و براغماتيا في تعاملها مع الطلب الأمريكي، وأنه أنقذ البلاد من هجمات أمريكية أخرى.

ثمّ إنّ التطورات الجديدة في دارفور بدءا من عام ٢٠٠٣ أصبحت محور التوتر في العلاقات بين البلدين ، وبالأخص أنّ الولايات المتحدة لا تعارض تدويل القضية بينما يعارضه السودان. والحركات المساندة لقضية الدارفوريين وخاصة تحالف أنقذوا دارفور مقرها الولايات المتحدة الأمريكية، والولايات المتحدة لم تصرح بمعارضتها لقرارات المحكمة الجنائية ضدّ الرئيس عمر البشير مع العلم بأنّ هناك عداءا تاريخيا بين المحكمة والولايات المتحدة الأمريكية. وكذلك يتهم السودان الولايات المتحدة بتهديد وحدتها عبر تشجيعها حكومة الجنوب بالقيام بتصرفات استقلالية؛ فترد الولايات المتحدة بأنها طرف مؤيد لاتفاقية سلام نيفاشا المبرم بين الحركة الشعبية والمؤتمر الوطني عام ٢٠٠٥؛ ويذكر الإعلام الأمريكي أنّ التكنولوجيا والنبوغ الأمريكيين هما اللذان اكتشفا آبار النفط السوداني لكنّ الخرطوم سلمتها إلى الشركات الصينيّة، التي تعتبر المنافسة الأولى لمصالح أمريكا الاقتصاديّة؛ وتردّ السودان بأن الشركات الأمريكية التي اكتشفت البترول السوداني

(1) Richard Cockett, Sudan: Darfur, Islamism, and the World: The Failure of an African State. Yale University Press, 2010.
(2)Lawrence Wright, The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11. New York: Vintage Books, 2007.

ماطلت في استخراج هذا البترول من الآبار منذ اكتشافها في السبعينات، وأنّ الشركات الأمريكية لم تلتزم بالمعاهدات المبرمة حتى مع الحكومات السابقة لحكومة الإنقاذ. وعلاوة على ذلك تقول الولايات المتحدة أنها وفرت مبلغ ألفي بليون دولار عام ٢٠٠٦- ٢٠٠٥ لتغطية الاحتياجات الإنسانية في منطقة دارفور وجنوب السودان؛[١] وتتهم الإعلام الأمريكي السودان بمغازلة إيران و حمّاس، وتردّ السودان بأنّ الأولى مسألة مصالح سياسيّة و اقتصادية، وأنّ الثانية قضيّة إنسانيّة.

وقد ذكرت دراسة صحفية حديثة أنّ حكومة الرئيس جورج بوش رفعت الحصار الاقتصادي المضروب على السودان عام ٢٠٠٦ لكن فقط على حكومة الجنوب السوداني وليس على شماله.[٢] وكذلك يقول السودان أن الولايات المتحدة لم ترع وعودها للسودان حيال اتفاقية نيفاشا عام ٢٠٠٥م بين الشمال والجنوب إذ كان من المتوقع أن تخفف الحصار الاقتصادي على البلاد ؛ وكما يقول المحلل السياسي السوداني محمد علي سعيد وعود واشنطن «ذهبت أدراج الرياح بعد التوصل إلى اتفاقية نيفاشا المدعومة من قبل أمريكا حينها».[٣]

وبمجيء إدارة أوباما استبشر السودان خيرا، لكن أوباما وصل وفي بوتقته إشكاليات الماضي السوداني ـ الأمريكي المتأزم ومتطلبات الواقع الجديد. وقد ذكر بعض الصحفيين أنّ الشيء الوحيد الذي اتفق عليه الرئيس بوش والرئيس أوباما هو موضوع دارفور. فأثناء الانتخابات الرئاسية في أمريكا كان أوباما معروفا بتهكمه على حكومة الخرطوم، ومؤيدا للاتجاهات السائدة في تحالف دارفور؛ ففي عام ٢٠٠٦ حين كان عضوا يافعا في مجلس الشيوخ نبه في حديث مع تحالف أنقذوا

(1) US Government Fiscal Year, 2005-2006.

(2) Warrant Strobel et al Feds Won't Charge Blackwater In Sudan Sanction Case. In McClatchy News Papers, June 27, 2010.

(٣) في مقابلة مع عماد عبدالهادي ، الجزيرة نت في ٩ سبتمبر عام ٢٠٠٠.

دارفور إلى أنّه «اليوم نعرف الصالح وكذلك اليوم نعرف الطالح. إنّ مجزرة الأبرياء عمل طالح وتشريد مليوني شخص من بيوتهم عمل طالح. اغتصاب النساء حيث يغدون لجمع الحطب خارج قراهم عمل طالح، والسكوت المطلق في وجه عملية الإبادة أيضا عمل طالح».

وفي خضم مراجعاته لسياسات الولايات المتحدة الخارجية، عيّن أوباما مبعوثا خاصا للسودان وهو الجنرال المتقاعد المدعو أسكوت غريشن. وقد أبدى الجنرال تهيئا لتحسين العلاقات بين البلدين، بيد أنه يبدو للمحلل لتطورات هذه العلاقات أن هناك ثلاث جهات تتقاسم ملف السودان تحت إدارة أوباما، وهذه الجهات تمثّل المبعوث الخاص أسكوت وسكرتير الخارجية الأمريكية تحت قيادة هيلري كلينتون وسفيرة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة / مجلس الأمن الدولي وهي السفيرة سوزان رايس. وقد صرح أسكوت عدة مرات بملاحظات إيجابية تجاه السودان وعن محاولات الخرطوم البنّاءة في دارفور وجنوب البلاد، حتى قال لجريدة واشنطن بوست: «إن دور السودان في الإبادة الجماعية بدارفور أصبح من حديث الماضي.»[1]

غير أنّ تبعات الماضي الثقيلة التي تختبئ في جبة هيلري كلينتون سكرتيرة الخارجية الأمريكية و سوزان رايس، سفيرة البلاد لدى الأمم لمتحدة مازالت تخيم على هذه العلاقات وتمثل عقبة في سبيل محاولات أسكوت غريشن لتحسين العلاقة بين البلدين؛ وفي ظل هذا البطء في التقدم، واقتراب موعد الاستفتاء في الجنوب، وزيادة التوتر بين الجانبين راجعت إدارة أوباما سياستها تجاه السودان هذه المرة متخذة سياسية الجزرة والعصا. ففي خطاب الرئيس أوباما في الأمم المتحدة يوم ٢٤ سبتمبر عام ٢٠١٠م إنذار حكومة الخرطوم من مغبة سياسة الاستفتاء القادمة في

(1) Washington Post, June 18, 2009.

الجنوب. تلي ذلك المؤتمر الخاص بمستقبل السودان والذي حضره أكثر من أربعين دولة وشارك فيه أوباما نفسه حيث حرصت حكومة أوباما على عرض حزمة من السياسات الجديدة تجاه السودان مثل رفع الحظر عن الاستثمار في قطاع النفط السوداني وتطبيع كامل العلاقات بين الجانبين شريطة اعتراف الخرطوم بنتيجة الاستفتاء والتوصل إلى حل لمشكلة دارفور.

عقب هذه التصريحات واجهت إدارة أوباما انتقادات واسعة النطاق وسط الصقور الجمهوريين وبعض وجهاء المجتمع المدني الذين اتهموه بمكافأة الخرطوم على سوء تصرفها. مما اضطر بالرئيس أن يصرح أمام جمهور من الطلاب أثناء رحلاته لدعم مؤيديه من الحزب الديمقراطي الذين يشاركون في الانتخابات النصف الدورية في شهر نوفمبر عام ٢٠١٠، أنّه «من المهم لنا أن نمنع هذه الحروب ليس فقط انطلاقا من أسباب إنسانية، بل أيضا انطلاقا من المصلحة الذاتية، لأنه إذا تفجرت الحرب هناك (في السودان) فإنها قد تكون لها آثار مزعزعة للاستقرار توجد مجالا أوسع لنشاط إرهابي قد يجري توجيهه في نهاية المطاف إلى بلدنا».[1]

وقد تُرجم اهتمام إدارة أوباما بقضايا السودان إلى حضور أمريكي كثيف أثناء استفتاء تقرير المصير في الجنوب سواءا على المستوى الإعلامي عبر تغطية مباشرة من جريدة نيويورك تايمز ونجوم هوليود أمثال جورج كلوني، أم بالرحلات المتتالية إلى الخرطوم التي قام بها عضو مجلس الشيوخ، جون كيري الذي يرأس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي. إضافة إلى ذلك حضور مراقبين من مركز الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر (The Carter Center) في كل أنحاء السودان لمراقبة عمليات الاستفتاء. ومع أنّ النتائج الأولية عن ترتيبات الاستفتاء والأجواء الإيجابية التي واكبت المشاركة الشعبيّة كانت تتمّ فوق

(1) Obama speaking to a group of young voters on Oct. 13, 2010.

التوقعات، فانّ الردّ الأمريكي المباشر لم يجاز السودان بهذا الجهد، و لم يكافئ الخرطوم بتعاونها مع المجتمع الدولي. بل إنّ جون كيري ذكر للمسئولين السودانيين في الخرطوم وعودا جديدة وشروطا غير واضحة عن كيفية رفع اسم السودان عن قائمة الدول الراعية للإرهاب وإمكانية فتح أبواب التعاون بين الدولتين. وقد لخّص كيري هذه الشروط الجديدة في نقطتين مرتبطتين بالجنوب السوداني: شفافيّة الاستفتاء في ميقاته واحترام الخرطوم لنتائجه.[1] والإشكال هنا أنّ هذين الشرطين يصعب تقييمهما في موازين سياسات المدّ والجزر التي سوف تطبع العلاقات بين الشمال والجنوب السوداني حتى حين يتمّ الاستفتاء لصالح الانفصال كما هي النتائج المعلنة في بدائيات شهر فبراير عام ٢٠١١ ، وحتى حين تتبادر الخرطوم الى الاعتراف باستقلالية الجنوب، كما فعل الرئيس البشير في نفس الوقت. وثانيا، مشكلة الجنوب لا تمثل اليوم المنبع الوحيد أو الأساسي للتوتر القائم بين أمريكا والسودان، بل هي طرف من جملة تعقيدات بين الدولتين.

والسؤال هنا : هو ماذا حدث في العلاقات السياسية بين هذين البلدين؟ هل هناك عوامل تاريخية أو ثقافيّة أو اقتصادية تفرض سلبيتها على هذه العلاقات؟ ماهي المؤشرات التي توجه العلاقات نحو الهاوية مع محاولة السودان الحثيثة لتحسينها؟ وبأسلوب مقتصر، ما هي صورة السودان في الذاكرة الأمريكية الحالية و التي تخيم بظلالها على تصرف الساسة الأمريكيين تجاه السودان؟ قبل التفصيل في هذا النقاش يجب علينا الإشارة إلى أن علاقات السودان بالولايات المتحدة لم تكن دائما هينة و سلسة في التاريخ الحديث.

(1) See Laura Rozen «John Kerry Conducts Sudan Diplomacy.» In Politico: November 17, 2010

العلاقات السودانية الأمريكية عقب استقلال السودان

■ ■ ■

في خضم الصراع العربي الإسرائيلي عام ١٩٦٧ قطع السودان علاقاته بالولايات المتحدة الأمريكية تضامنا لعروبته ومناصرا لمصر، ثم بقيت العلاقات عادية حتى عام ١٩٧١ حين أصبح الرئيس السوداني جعفر نميري عدو الحزب الشيوعي السوداني اللدود، وبالأخص حين اتهم نميري الاتحاد السوفيتي بالتآمر مع الحزب الشيوعي السوداني لزعزعة نظامه. أدّى هذا التحول في سياسة نميري إلى تقارب نظامه مع الولايات المتحدة الأمريكية التي ساهمت ماليا في إعادة توطين اللاجئين الجنوبيين عقب اتفاقية أديس أبابا عام ١٩٧٢م بين حكومة نميري وحركة تحرير جنوب السودان SSLM. ثم تدهورت العلاقات بين البلدين عقب مقتل السفير الأمريكي كليو نويل Cleo Noel في الخرطوم ونائب رئيس بعثة السفارة الأمريكية كارتي مور (Curtis Moore) على أيدي الإرهابيين الفلسطينيين بقيادة جماعة سبتمبر الأسود؛ وشك الساسة الأمريكان في نزاهة العدالة السودانية في حكمها الذي لم يكن قاسيا على الجناة.

وفي عام ١٩٧٦ نجح الرئيس نميري في التوسط بين المتمردين الانفصاليين الإريتريين الذين كانوا يحتجزون عشرة أمريكيين كرهائن في مقرهم شمال إثيوبيا. وجزاءا له، استأنف الأمريكيون علاقاتهم بالسودان، وبالأخص في مجال المساعدات الإنسانية. وفي الثمانينات ، بقيت هذه العلاقات في التحسن حتى أنه في عام ١٩٨٤ تعاونت حكومة نميري مع الولايات المتحدة لتسهيل عمليات موسى (Operation Moses) وهي نقل حوالي عشرة آلاف من اليهود الإثيوبيين

المشهورين باسم فلاشا(Falasha)) من معسكرات اللجوء الواقعة في السودان إلى إسرائيل.[1]

في هذا الظرف من التاريخ كان السودان أكبر دولة تتلقى المعونات الأمريكية العسكرية والمدنية في إفريقيا جنوب الصحراء. ولمزيج من التطورات الداخلية مثل تصالح النميري مع الإسلاميين، وأخرى خرجية مثل وجود عدد كبير من حرس الثورة الليبية في الخرطوم، خفضت الولايات المتحدة حضورها في الخرطوم في أعوام ١٩٨٤ - ٨٦. وبعد هجوم أمريكا على ليبيا عام ١٩٨٦، و ما تبعه من مقتل دبلوماسي أمريكي في الخرطوم من جراء الغضب الجماهيري استدعت الولايات المتحدة معظم ممثليها من الخرطوم. وهكذا بقيت العلاقات مجمدة حتى قيام انقلاب عام ١٩٨٩ وما أعقبه من تدنّ منتظم في هذه العلاقات.

(1) Ruth Gruber, Rescue: The Exodus of the Ethiopian Jews. Athneum Books, 1987.

العوامل المؤثرة على هذه العلاقة

■ ■ ■

مع أنّ العلاقات السودانية الأمريكية بكل هذه العجالة التي تعرضنا لها لم تكن مثالية ولا عادية على مستوى العلاقات الدولية، فليس ذلك هو السبب في التطورات السلبية التي سردناها في بداية هذا الفصل. بناءا على قراءة منهجية للأحداث يصح القول إنّ إشكالية المصداقية في العلاقات، وتأزم الوعود الأمريكية للسودان باختلاف إدارات كلينتون، بوش الابن وحاليا أوباما هي نتيجة صورة السودان المتأزمة في الذاكرة الأمريكية الحديثة، وليست هذه الصورة وليدة صدفة لكنها صناعة ثلاثة محاور تكدست وسط أحداث ذات شأن في التاريخ الأمريكي الحديث.

المحور الأول : أسامة بن لادن والسودان

ليس هناك في القرن الحالي اسم يبعث الغيظ و الهرج في الذاكرة الأمريكية مثل اسم أسامة بن لادن، الذي مازال يحتلّ المرتبة الأولى في قائمة المطلوبين / الهاربين من العدالة عالميا (The Most Wanted Man). الرجل الذي ارتبط اسمه بسلسلة من أعمال العنف التي استهدفت أمريكا ومصالحها وأهلها داخل وخارج أمريكا، بدءا من هجمات القاعدة في الخُبر بالسعوديّة وعبر الهجوم على الباخرة الحربيّة الأمريكية (USS Cole (في اليمن و الهجوم على الجنود الأمريكيين في الصومال إلى الهجمات على سفارتين الأمريكيتين في شرق أفريقيا – كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨م، ثمّ مجيء هجمات ١١ سبتمبر في قلب العاصمة السياسية والاقتصادية في أمريكا. هذا الاسم الذي تترعرع الجيل الأمريكي المعاصر على ابتغاضه والبحث عن سبل معاقبته ومعاونيه، مع سوء الحظ، ارتبط صداه بالسودان حيث اتخذ موطنا

له بين أعوام ١٩٩٢ و١٩٩٦. وهذا ما جعل أشهر كتاب تتبع الأحداث التي سبقت حادثة ١١ سبتمبر والأشخاص الذين اعتبروا منفذين للعمليات والمدن التي أقاموا أو ولدوا فيها، يرمز إلى السّودان بفصل خاص تحت مسمى «الجنّة The Paradise» وكذلك يرمز إلى خروج ابن لادن من السودان بـ «فقدان الجنة».[1] وتجدر الإشارة هنا إلى أن المؤلف، لورنس رايت، قضى وقتا في السودان مقابلا رجالات الدين وبعض أهل السياسة الذين وفروا مادة الدراسة التي صورت السودان ككوكب للجهاديين الفارين من القانون في مصر والسعودية واليمن وغيرها.

وهذا الموضوع جدّ خطير، ليس فقط لأنّ فيه ترابط اسم السودان بأكبر عدو لأمريكا، لكن لأنّ هذا الرجل أيضا سبب عبر منظمة القاعدة سياسة الحرب على الإرهاب، التي تبعت هجمات ١١ سبتمبر، وكان السودان مسجلا ضمن الدول الداعمة للإرهاب بما يقرب من عقد قبل هذه الهجمات، وهذا يعني أنه حين الحديث عن جغرافية بن لادن يرد اسم السودان، وحين الحديث عن سياسة الإرهاب الدولي أيضا يرد اسم السودان. وليس بغريب أن يرى الشخص أنه في سيناريوهات الإرهاب الدولي التي تبثّ في التلفزيون أو أفلام هوليوود حيث تسيطر جماعة خياليّة خارجة على السلام الدولي على أسلحة دمار شامل كثيرا ما يرد اسم السودان كمسرج لهذه السيناريوهات.

ومن الناحية السياسية فإنّ النزوح الأمريكي عن السودان ووطأة الحصار عليه أيضا أحدثا فطاما ثقافيا بين أكاديمية البلدين، فأصبحت الأخبار الواردة من السودان إما ترد عن طريق الصحفيين أو تروى بواسطة المؤسسات العاملة في مجال العمل الإنساني الطوعي. وهاتان الجهتان قلما تهتمّان بأخبار عادية و سارّة. أعني

(1) Lawrence Wright, The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11. New York: Random House, 2008 .

بهذا، أنما يصل إلى العالم الخارجي وبالأخص الغربي عن السودان غالبا ما لا تكون أحداث مبشرة بل شتّان ما تكون أخبار حرب أو مجاعة أو أحداث مرتبطة بالإرهاب. كل هذا الجو المفعم بذكريات الماضي ساعد الذاكرة الأمريكية على الاحتفاظ بأيام ابن لادن في السودان. وعلاوة على ذلك ، فإن أخبار الرجل انقطعت بين أفغانستان وباكستان وثالث دولة تذكر بعد هاتين الدولتين هي السودان. هذه الحقيقة المؤسفة تحط بظلالها في أذهان الأمريكان، وبالأخص أهل السياسة وأرباب الإعلام. وهكذا يلاحظ الفرد حين السفر إلى السودان أنّ الأسئلة دائما تكون مفعمة عن الوضع هناك، و إمكانية وجود معسكرات الإرهابيين والمتطرفين الخارجين عن حكومات دولتهم بينما يستفسر الطلاب عن أنباء ابن لادن و أنصاره. ولأنّ الأجيال في هذا القرن جبلوا على البحث عن المعلومات عبر الإنترنت، فالبحث عن كلمة السودان في موقع غوغل لا يأتي بنتائج خارجة عن مثلثات الإرهاب، الحرب في الجنوب والتشرد في دارفور. إنّ هذا المحور له شأن عظيم في تشييد الصورة السلبية للسودان في الذاكرة الأمريكية الحديثة.

المحور الثاني: The Lost Boys of the Sudan

و يعني هذا المصطلح « فتيان السودان المحرومين». والمصطلح يعبر عن ٢٧ ألف شاب من قبيلة الدينكا الذين نزحوا من قراهم خلال حرب السودان الثانية بين أعوام ١٨٨٣-٢٠٠٥ وتمّ تسكينهم في الولايات المتحدة. والاسم من صناعة المنظمات الإنسانية الخيرية العاملة في السودان. وبالأخص منظمة لجنة الإنقاذ الدولية (International Rescue Committee) التي ابتكرت فكرة إعادة تسكين هؤلاء الفتيان في الولايات المتحدة الأمريكية. وبمجيء عام ٢٠٠١، وصل عدد الذين تمّ تسكينهم في الولايات المتحدة إلى ٣٠٠٠ شاب موزعين في ٣٨ مدينة أمريكية، ثم توقفت حركة التهجير بعد هجمات ١١ سبتمبر، ثم استؤنفت عام

٢٠٠٤. وحاليا يقطن أكبر عدد من هؤلاء 'لشباب في ولاية 'وماها في نابراسكا، ويبلغ تعدادهم سبعة آلاف. والمهمّ في هذا المحور أن قصة هؤلاء بعد أن تلقت رواجا في الشارع الأمريكي حيث أصبحت في مقدمة أجندة الكنائس، وتناولتها الكتاب، ورجال الفن والموسيقي، واستقطبت قلوب المحسنين المتصدقين أصبح الاسم رمزا للكارثة الإنسانية المجهولة والتي صنعها الإنسان لدواعي دينية، عنصرية أو عرقية.

من الناحية الأدبية تمكنت هذه الحركة من إنتاج أدب بئير يتناول قضايا التشرّد، اللجوء، فقدان الوالدين والأقربين، النضال من أجل البقاء، مواجهة قوات التسلط والجبروت، قوة العزيمة على البقاء حيّا رغما عن الحياة نفسها. والنزاهة تفرض علينا الاعتراف بجمال هذا الأدب الذي يصنف ضمن آداب الغربة والاغتراب والذي سرعان ما يستقطب القلوب ويستعبد العواطف الإنسانية. ومن أشهر الكتب في هذا الإتجاه كتاب حرب إيما (Emma's War) للكاتبة الصحفيةDeborah Scroggins ، وهو عمل ضخم رائع جبّار، وبلغة شعرية رائعة يزخرفها إمكانيات الكاتبة خياليّة و قدرتها البحثية، إضافة إلى إقامتها المتكررة في أرجاء السودان. وكثيرا ما يصف الناقدون الكتاب بأنه مغامرة هوس و حبّ في مجاهل السودان المأساويّة.[1]

وكتاب آخر مشهور هو ما أنتجه فتى جنوبي من الدينكا، اسمه فلانتينو أشاك (Valentino Achak) و بمساعدة الكاتب الأمريكي المشهور دافيد إيجر (David Eggers). ويلاحظ الفرد أن طلاب المدارس الأمريكية بمجرد إكمالهم قراءة هذا الكتاب يتبنون صورة داكنة عن إنسان شمال السودان العربي المسلم، بينما يكنون حبّا وحنانا للإنسان الجنوبي المناضل ضد الظلم والهوس الشمالي. واسم

(1) Deborah Scroggins, Emma's War: Love, Betrayal and Death in the Sudan. Harper Perennial, 2004.

الكتاب هو «ما هو ماذا» (What is the What) وهو قصة حياة فلانتينو أشاك. والكتاب عمل أدبي قلّ وجود مثيل له في هذه الحركة الأدبيّة. إنه رسم فنّي أنيق لصورة تمثل هرم فزع وظلم ينفرج الهول في حياة الضعفاء الجنوبيين من حوله. وخلاصة القصة أنّ طفلا بمسمى دينغ يفقد أسرته حين باغت العرب الرحل في قريتهم الواقعة في منطقة دينكا في قرية ماريال بائي، فينزح الولد مع أقرانه الأطفال المشردين عبر المصائب والأدغال مختفيا من تجار الرقيق العرب وأركانهم من جنود الحكومة الشمالية حتى يصل إلى معسكر اللاجئين في إثيوبيا.

لكن الحظّ يخالف هؤلاء اللاجئين حين قامت الثورة ضد الحاكم الديكتاتوري الإثيوبي منغستو، وتتغير الولاءات بين الحكومات السودانية والإثيوبية والمتمردين، فيطلق الجنود النار على اللاجئين الجنوبيين مما دفعهم إلى الهروب بحثا عن ملاجئ أخرى في كينيا حيث انتهى بهم الأمر إلى معسكر كاكوما الشهير. وبعد سنوات من حياة الشقاوة على حافة الموت يحصل الولد دينغ على فرصة الهجرة إلى أمريكا حيث يتابع كفاحه للبقاء في أرض الغربة مثقلا بجروح الماضي العميقة التي أفقدته كل الشيء في الحياة. لكنه يأبى إلا أن يعيش ولن يعيش إلا إذا قصّ القصة وبلغ الأمانة إلى سامعيه ممن يرجو منهم مناصرة الحق وأهله في الجنوب السوداني. وقوة هذه القصة وبلاغتها لا تنبع من أسلوب الكاتب القصصي الرائع، لكنه قائم في أنها تعرض أسامي صحيحة وأماكن واقعيّة يمكن التأكد منها وأحداث تاريخية غير مصطنعة ومدنا وقرى وشخصيات ليست من صنع الخيال الأدبي.

وعليه وفر الكتاب أرضية خصبة للمناقشة في أروقة الجامعات حين يندب المنظمون أساتذة متخصصين في التاريخ الإفريقي أو قضايا الشرق الأوسط أو العربية أو الإسلام ليضفوا بالشرعية على المصطلحات الواردة في الكتاب مثل كلمة جلابة، عرب رحل و هكذا. ولم يكن منبر نيويورك بوك ريفيو.

وهو منبر شهير لمراجعة الكتب، (New York Book Review) بمبالغ حين علق على الكتاب بأنّه «سيكسر قلب كل من يقرأه.»[1] وقد تمكن هذا الكاتب اللاجئ وبفضل مبيعات الكتاب من أن يقيم منظمة إنسانية تعني بظروف التعليم والصحة في الجنوب.

وهناك عشرات الكتب التي تنشر سنويا عن مواضع مرتبطة بهؤلاء الشباب أو عن الجنوب السوداني. وسوف أعرض بعض الكتب التي نالت رواجا خلال السنوات الخمس الماضية.

اسم الكتاب	سنة	مضمون العمل
Lost Boy, Lost Girl	٢٠١٠	مصائب اللاجئين من الجنسين
The Lost Boy	٢٠٠٩	مآسي هروب لاجئ من السودان إلي الجنوب
War Child	٢٠٠٩	قصة طفل جنوبي مجند
God Grew Tired of Us: A Memoir	٢٠٠٧	قصة الكفاح، الترحال مآسي اللجوء من الجنوب السوداني
Not Just Child's Play	٢٠٠٧	تبني الفن الدينكاوي لمعايشة مآسي اللجوء في الولايات المتحدة
The Journey of the Lost Boys	٢٠٠٥	رحلة اللجوء من الجنوب و مآسيها
They Poured Fire on Us From the Sky	٢٠٠٥	قصة هجوم الجيش السوداني على القرى واللاجئين
The Lost Boys of Sudan	٢٠٠٥	نضال اللاجئين وتكيفهم في أمريكا

ومن الناحية الفنية السينمائية هناك عشرات الأفلام والأفلام الوثائقية عن هؤلاء

(1) New York Books, October 22, 2006.

الشبّان ومعظمها تتناول مآسي الفقدان: فقدان الأهل والأقربين، فقدان الوطن، فقدان الهوية وحتى فقدان الذاكرة و الذات. فمثلا وثيقة مذكرات دينكا (Dinka Diaries) تمثل قراءة سيكولوجية لمآسي هجرة هؤلاء الشبان الدينكاويين الذين نزحوا من الجنوب السوداني إلى الشمال الأمريكي، وبالأخص الذين استوطنوا في مدينة فيلادلفيا، ومن الأفلام الوثائقية الشهيرة:

اسم الوثيقة	العام	مضمون العمل
Without Trace	٢٠٠٧	شارك فيه اثنان من الفتيان اللاجئين ممثلين لأدوارهم كلاجئين من الحرب.
God Grew Tired of Us	٢٠٠٦	تمثيل لحياة فتى لاجئ ومآسيه.
The Lost Boys of the Sudan	٢٠٠٥	رحلة هؤلاء الفتيان و استيطانهم الشمال الأمريكي .

إنّ حضور هذا الأدب بشقيه المقروء والمرئي في حياة الإنسان الأمريكي ساهم في خلق صورة شريرة للسودان كدولة ولأهل الشمال بصفة خاصة. هذا الأدب أورث أجيالا من الأمريكيين صورةً قاتمة وغير رحيمة عن السودان العربي. فالإنسان الجنوبي في تراث هذا الأدب هو ضحية العرب المسلمين، تجار الرقّ وأنصار تعبيد الآخر، الأسود الأفريقي الذي يكافح للدفاع عن هويته. هذه الصورة الداكنة للسودان ساهمت في تأزم العلاقات بين البلدين؛ لأنّ السياسي الأمريكي يستوحي مواقفه السياسية من الشارع الأمريكي وإذا كان الشارع الأمريكي مفعما بمثل هذه المواقف السلبيّة تجاه بلد أو شعب أو عقيدة ما، يصعب إثناء السياسي من تبني مواقف عدائية تجاه ذلك الموضوع. وعليه، يصح القول بأنّ

السياسي الأمريكي قلّما يتلقى تفاهما من الشارع الأمريكي على اتخاذ قرارات قد تبدو في صالح الخرطوم.

المحور الثالث : قضية دارفور:

ليست هناك أدلة تسند حضور موضوع أو اسم دارفور في الذاكرة الأمريكية في العصر الحديث ناهيك عن العصر القديم، لكن هذا الاسم أصبح منذ ٢٠٠٤ من أكثر الأسامي رواجا في الإعلام الأمريكي، ومن أكثر المجالات التي تمكنت من نيل ودّ المؤسسات الإنسانية واجتذاب جيوب أهل الخير من الأمريكيين. وعجيب أنه لما كانت قوات الغزو الأمريكية ضاربة في العراق بين أعوام ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ لم تكن الحرب في دارفور بأقل حضور في الإعلام الأمريكي. فمثلا جريدة نيويورك تايمز التي تعتبر من أرقى منابر الإعلام في العالم الغربي والأمريكي بصفة خاصة، ومن أكثر الجرائد هيبة ووزنا في العالم كانت تطلق دعوات عدة مرات في الأسبوع لأجل إيقاف الحرب في دارفور ولدعوة المجتمع الدولي إلى نجدة 'لسود الأفارقة من جبروت العرب الجنجويد.

وجدير بنا الإشارة إلى أننا لا نقلل من شأن الحرب في دارفور، ولا أننا نستهجن حياة إخواننا في دارفور، ولكن السؤال الموضوعي هو نفس ما أشار إليه الأستاذ محمود ممداني في مقال عن هذا الموضوع، وهو لماذا دارفور في الوقت الذي كان مئات الجنود الأمريكيين وآلاف العراقيين يموتون في العراق تحت وطأة الغزو الأمريكية ؟ لماذا لم تطلق الجريدة أو زميلاتها نفس الصرخة لمنع إنفاق أموال الضرائب الأمريكية لتمويل هذه الحرب في العراق؟.[1]

ومن الناحية الموضوعية، فإنّ الكيفية التي قدمت بها موضوع دارفور لم تكن نزيهة، فقد جرد الموضوع من كل سياقه المكاني والتاريخي، فبدت القصة كأنها خيالية

(1) Mahmoud Mamdani, «The Politics of Naming: Genocide, Civil War, Insurgency.« In London Review of Book.

للقارئ المدقق، لكنها قدّمت كمجزرة واقعية للقارئ العادي تقع على مرمى المجتمع الدولي ومسمع العالم المتحضر.

وفي هذا الإطار تبدو صورة تمثل العرب الجنجويد يغزون ويغتصبون الأفارقة السود العزل بلا ذنب ارتكبوه ولا جريمة اقترفوها سوى الدفاع عن ممتلكاتهم وحرماتهم. ومن ناحية تغطية الموضوع، لم تكن هناك دقة في التقديرات الواردة، ولا نزاهة في تفاصيل الأحداث. وفي هذا الإطار، نعرض جانبي المحور اللذين من خلالها تمّ تجسيم مشكلة دارفور في العقلية الأمريكية المعاصرة، وهذا من خلال الصحفي نيكولاس كريستوف،وحركة أنقذوا دارفور.

نيكولاس كريستوف: منظر قضية دارفور

ويعتبر الصحفي في نيويورك تايمز نيكولاس كريستوف (Nicholas Kristof) منظر قضية دارفور وعدو حكومة الخرطوم الأول. وهو أول من بدأ الحملة على السودان، وأكثر من كتب عن دارفور معطيا أرقاما للضحايا لا يدرك أحدا أنىّ جاء بها أو أين تحصل عليها، ففي ٢٤ مارس عام ٢٠٠٤ أومأ إلى حدوث التطهير العرقي في السودان Ethnic Cleansing. وتحدّث عن قيام العرب الحاكمين في السودان بإجبار سبعمائة ألف من الأفارقة السود إلى مغادرة قراهم وحقولهم لصالح العرب الرعاة في غرب السودان. وفي ٢٧ من نفس الشهر والعام، كتب كريستوف بأنّ الموضوع لم يكن تطهيرا عرقيا فحسب بل جريمة إبادة جماعية على مسمع ومرأى المجتمع الدولي، وأن حكومة العرب في الخرطوم حاليا «تقود حرب إبادة جماعية ضد ثلاث قبائل إفريقية في دارفور وهم الزغاوة المساليت وقبائل الفور.» وفي يوم ٢٩ من شهر مايو من نفس العام راجع أرقامه بناءا على ما قرأ حسب قوله من تقارير الوكالة الأميركية للتنمية الدولية (US Agency for International Development) بأنّ عدد الموتى يصل إلي مائة ألف شخص.

وفي الشهور التالية تابع نيكولاس شحن الأرقام بالآلاف شارحا جرائم العرب وحكومتهم ضد الأفارقة الأبرياء في السودان. و لتفرده بهذه الحكاية العاطفيّة، ولغياب أي صوت بديل أو نقد بنّاء لكتابته، فرض كريستوف نفسه كممثل لإنسانية المنظمات الخيرية العاملة في مجال النجدة في غرب السود ن

وكمنظر لأهل دارفور المستضعفين. ومع بدء تدويل قضية دارفور وإرسال الأمم المتحدة لجانا لتحري الحقائق، وظهور أرقام بديلة لعدد الضحايا ومجرى الأحداث بدأ كريستوف يراجع أرقامه منتقدا الجهات التي تخلص الأرقام سواء كانت دولية أم قطرية. ففي ٢٣ فبراير عام ٢٠٠٥ كتب كريستوف بأن التقديرات لعدد الضحايا تقدر بسبعين ألفا وهو حسب تعليقه مستحيل ءمروج من طرف أنصار الأمم المتحدة، واختار مائتين وعشرين ألفا وهو أقرب إلى الصدق في رأيه.

ولم يكد هذا الكاتب يتردد في تعميم اللوم على العرب، بل وحتى على المسلمين بغض النظر عن مكان أو مقام وجودهم. فكان قد كتب في باكورة عام ٢٠٠٤ عن زعامة المسلمين متسائلا هل «يهتمون فقط بموتى المسلمين حين يكون القتلة إسرائيليين أم أمريكيين؟» ولم يقتصر كريستوف بالكتابة فقط، لكن كان له حضور ملحوظ في وسائل الإعلام الأخرى، ففي منتصف عام ٢٠٠٤ أجرى مقابلة تلفزيونية مع برنامج (NBC Today Show) ذكر فيها أنه «بدأنا نسمع أصواتا من العالم الإسلامي تعترف بأنّه عيب علينا أن تسبقنا الإرساليات المسيحية والجماعات اليهودية في نجدة إخواننا المسلمين في السودان وتشاد.»

وفي ٣ مايو من عام ٢٠٠٥ نقّب كريستوف في أرقام ضحايا دارفور وشهداء «المجازر العرب» في إفريقيا، رافضا كل التقديرات التي تخفض حدة التوتر ومعلنا أنه أقرب إلى أربعة مائة ألف قتيل مستندا في ذلك إلى ما ذكره ائتلاف لبعض المنظمات الإنسانية تحت مسمى التحالف من أجل العدالة الدولية (Coalition for International Justice) مستطردا أن هذا العدد يزيد بمقدار خمسمائة

شخص في اليوم. وفي ٢٧ نوفمبر من نفس العام ذكر كريستوف أن الضحايا الآن يزيد بمقدار مائة ألف شخص في اليوم.

جدير بالذكر هنا أن نيكولاس كريستوف ليس بالوزن الخفيف فيستهجن بمغالطاته، وليس بالصحفي البسيط فيتقاضى عن ادعاءاته. وتلك هي المشكلة، أو بأسلوب آخر، إنّ المشكلة هنا هي أنّ هذا الرجل له ثقله في الإعلام الأمريكي، وله صداه في آذان الساسة الأمريكان. فهو يكتب على الأقلّ مرتين في الأسبوع في جريدة New York Times، مما يعني في القاموس الثقافي الأمريكي أنّه من قادة الفكر و أرباب البيان الإعلامي على المستوى القومي. فهذا أقصى ما يرنو إليه طالب الإعلام، و تلامذة الكتابة الصحافيّة في هذا البلد. فقد فاز مسبقا بأعلى الجوائز والإنجازات التي تهب للصحفيين في أمريكا. فمثلا في عام ١٩٩٠ فاز هو وزوجته الصحفية، شيريل وودون Sheryl Wudunn بجائزة بولتزر Pulitzer Prize لتغطيتهما لأحداث مربع تينامات في الصين (The Tiananmen Square Protests) عام ١٩٨٩.[1]

هذه الجائزة هي أعلى جائزة إعترافيّة يقدر الصحفي على الحصول عليها في أمريكا أو الغرب عدا جائزة نوبل. وعجيب أنّ هذا الصحفي أعاد الفوز بنفس الجائزة عام ٢٠٠٦ لكتاباته عن قضية دارفور. وقد علقت لجنة القضاة المشرفة على الجائزة عن فوزه عام ٢٠٠٦ بأنّه كان لأجل « تشخيصه العميق في كتاباته لمحن أهل دارفور ولو بتعريض نفسه للضرر، لقد شخص كريستوف قضية الإبادة في دارفور

(١) مما يجدر ذكره هنا، أن كريستوف كان مخطئا في كتاباته حول هذه الأحداث ، وحين كتب « بأنّ عدد القتلى يقدر بآلاف ، أو بالأحرى لا يعلمه الا «الله» . و الآن أدرك الجميع وحسب الأرقام الرسمية و المستقلة أن عدد القتلى من جانب المتظاهرين والجيش الصيني كان على أقصى تقدير أقل من ثمانمائة قتيل . راجع المرجع:

Kristoff, Nicholas, «A Reassessment of How Many Died In the Military rackdown in Beijing». In The New York Times, (21 June 21, 1989).

وأعطى صوتا لمن لا صوت له في كثير من بقاع العالم.» وإضافة إلى هذه الجائزة فقد فاز كريستوف بمعظم الجوائز الصحفية الشبيهة بهذه في أمريكيا مثل جائزة جورج بولك George Polk Award ، جائزة نادي الصحافة في الخارج (Overseas Press Club)، جائزة أخبار جمعيات الصحافة على الانترنيت (The Online News Associations)، جائزة الجمعية الأميركية لرؤساء تحرير الصحف (The American Society of Newspaper Editors). هذه القائمة من الجوائز قد لا يكون لها معنى في ذوق قارئ هذا الكتاب، لكنها تضفي بالشرعية المهنيّة لكريستوف في أمريكا، كما تضرب بظلالها على أجندة السياسيين في البيت الأبيض و الكونغرس الأمريكي وعلاوة على ذلك، لكريستوف عدة مؤلفات عن موضوعات الصين، و صعود الشرق على المستوى العالمي، وعن تعزيز فرصة المرأة في العالم. والنزاهة أيضا تتطلب منا أن نذكر أن كريستوف كان من أوائل من رفضوا حرب الولايات المتحدة في العراق.

والسؤال الذي لا يستطيع أحد غير كريستوف الإجابة عليه هو ما الذي دفعه إلى التلفيق لخلق هذا الجو الإعلامي المعادي للسودان؟ لماذا فرض على المجتمع الأمريكي ورجال السياسة تبني قضية دارفور والاشتهار بها لما بعد حدودها القطرية والإقليمية؟ هل هو كراهيته للعرب، والتي ما تردد في الإفصاح عنها بمناسبة أو بغير مناسبة؟ أم عداؤه للصين الذي بنى عليه شهرته في بداية التسعينيات؟ ومعروف أن الصين هو حليف السودان الأول في استخراج البترول. وليس مفاجئا أنّ الصين لم تسلم من انتقادات كريستوف في شأن دارفور. ففي مقال له في ٢٣ إبريل، يكتب: «أنّ الصين اليوم تشهد جريمته الإبادية للمرة الثانية من خلال ثلاثة عقود، المرة الأولي كانت في كمبوديا تحت حكم بول بو، والمرة الثانية هي في دارفور السودان لقد موّل مشتريات الصين من البترول السوداني نهب الحكومة لدارفور كما أن السلاح الصيني AK-47 هو السلاح المفضل في ذبح مئات

الآلاف من الناس في دارفور وحتى الآن رفضت الصين غير الدفاع عن السودان في مجلس الأمن الدولي. »

لنقرأ أحد أحدث كتابات كريستوف عن السودان، وبالمناسبة هذه المرة عن الاستفتاء في الجنوب، فقد كتب يوم ١ من شهر أكتوبر من عام ٢٠١٠ في جريدة NYT الدولية يقول:

الوفاق العالمي تجاه جريمة الإبادة هو أنها «لن تتكرر» لكننا مع سوء الحظ على حافة تكرارها مرة أخرى. المكان هو جنوب السودان، والزمان هو الشهور القادمات. جنوب السودان الذي يكتنف لأكثر من ٧٥٪ من نفط هذا البلد، سوف يشهد سكانه الاستفتاء عن مصيرهم في ٩ يناير من العام القادم حين يقررون في شأن بقائهم في سودان موحد. هاك تنبئي عن كيف ستؤدي الأحداث إلى جريمة إبادة مرة أخرى:

١٠ ديسمبر ٢٠١٠: رئيس لجنة الاستفتاء تفشي جرائم الإبادة الجماعية، وحوادث اغتصاب تقوم بها قبائل شمالية تقطن في المناطق الحدودية بين الشمال والجنوب، فيرفض الشمال وجود أية علاقة بينها وبين هذه التطورات.

١٥ ديسمبر ٢٠١٠: رئيس لجنة الاستفتاء، وهو شمالي، يطلب من الحكومة الجنوبية تأجيل الاستفتاء لمدة شهر لعدم استتباب الأمن والأمان ولعدم توفر تسهيلات الاستفتاء، فيصر الجنوب على متابعة إجراء الاستفتاء حسب الجدول المتفق عليه مسبقا. فيغتاظ الشمال ويعتبر الاستفتاء في ظل هذه التطورات غير شرعي.

٩ يناير ٢٠١١: يعقد الاستفتاء في المناطق الجنوبية الآمنة لكنه يتم تحت أوضاع متدنية وسوء إدارة بينة، لم يتم إجراء الاستفتاء في منطقة أبيي الغنية بالبترول، والسبب في ذلك أنّ الشمال هيأ ٨٠ آلف شخص من قبيلة المسيلية العربية وأرسلها

إلى المنطقة لتشارك في الاستفتاء.

١٨ يناير ٢٠١١: يعلن الجنوب أن ٩١ في المائة من الناخبين اختاروا الانفصال فيرفض الشمال هذه النتائج بدواعي عدم شرعية الإجراء ووجود العنف والتلاعب في كيفية إدارتها وأن العملية غير ملزمة لأن المشاركة فيها كان دون ٦٠ في المائة من تعداد السكان.

٢٠ يناير ٢٠١١: إعلان الجنوب الاستقلال من جانب واحد.

٢٥ يناير ٢٠١١: تغير القبائل الشمالية على قرى الجنوب، مغتصبين النساء وذابحين الرجال مما يؤدي إلى هجرة جماعية جنوبا، فيتبادر حاكم الولاية الحدودية، أحمد هارون الهارب من العدالة الدولية لدوره في قيادة مجازر قامت بها الجنجويد في منطقة دارفور. إلى إعلان تبرئه من هذه الأحداث.

٢٨ يناير ٢٠١١: يرسل رئيس السودان عمر حسن البشير أوامره إلي الجيش السوداني بأن تستولي على آبار النفط في الجنوب، زاعما أنّ «انعدام الأمن يفرض علينا اتخاذ هذه الخطوات لحماية المصالح الوطنية» ويردف الرئيس البشير قائلا «وسنبقي على اتصال بالإدارة الجنوبية من أجل حل المشكلة.»

١٠ فبراير: في وجه النزوح الجماعي لسكانها، تنهار حكومة الجنوب وتسود الفوضى ويسأل الرئيس بشير «كيف يظن هؤلاء أنهم بهذا التصرف يستطيعون إدارة دولة؟» ثم يواصل «سنتابع الحوار السلمي مع إخواننا لحلّ المشكلة وإعادة الوحدة الوطنية.»

١٥ فبراير: تفشي الحرب في منطقة جبال النوبة ودارفور فتقوم قوات الدفاع الشعبية بدفن ضحاياهم في الآبار والوديان لإخفاء جرائمهم عن محكمة العدل الدولية.

طبعا تنبؤاتي لمجريات الأحداث لن تنجلي كما أسلفت لكن تعنت الرئيس البشير

لا يبشر بعدم حدوث حرب دموية في سودان ٢٠١١م.

إن إدارة أوباما الحالية، بدأت تظهر اهتماما كبيرا بالسودان ولو مؤخرا، وقد قابلت الرئيس أوباما ومساعديه الأسبوع الماضي وتحدثنا عن السودان. وقد بدا لي أن إدارة البيت الأبيض تولي اهتماما كبيرا لقضايا السودان حاليا بمستوى ليس أقل شأنا من القضايا العالمية الأخرى.

وتنعقد اجتماعات يوميا للبعث عن سبل تجنب الحرب في السودان. وهذا شيء جيد وسعي رشيد. وقطعة الجزرة التي لوحت في وجه إدارة الخرطوم كبيرة ومشوقة وزيادة على ذلك فالبيت الأبيض يُسَخّر دولا أخرى للضغط علي الجانبين في الشمال والجنوب معا ليتوصلا إلى حل جذري للأزمة المخيمة على منطقة أبيي، وكل هذه المساعي تعد خطوات إيجابية إلى الأمام. لكن هناك خلل كبير في الأمر، فأنا لا أرى البيت الأبيض يلوح بعصا غليظة أمام إدارة الخرطوم ، تخيل نفسك في مقعد الرئيس عمر حسن البشير سيكون في مصلحتك التخطيط لعملية إبادة أخرى من أجل المحافظة على آبار النفط، ولو تم ذلك سرا، لأننا كأمريكيين لم نلوّح في الأفق ببدائل عقابية لذلك الاحتمال.

بعكس أوباما، فإدارة بوش (بعد ١١ سبتمبر) فصّلت للخرطوم ما سوف يحدث لها لو لم تكشف كل ملابسات ملف أسامة بن لادن لوكالة الاستخبارات المركزية CIA. فقد وضّحت للخرطوم أن أمريكا سوف ستستخدم طائرات مدمرة أو الصواريخ العابرة لتدمير المؤسسات النفطية في بور تسودان ثم تدمير كل أنابيب النفط المؤدية إليها، فلم يملك السودان إلا التعاون والاستدلال بالمعلومات المطلوبة. وكذلك تقدم المبعوث الأسبق إلى السودان السفير ريتشارد ويليام سون بمذكرة إلى إدارة بوش تتضمن قائمة لعقوبات إضافية لحكومة الخرطوم لو امتنعت عن التعاون. ومع سوء الحظ، إدارة أوباما لم تقم بمثل هذا التصرف حتى الآن.

لماذا لم تقم الإدارة بإخطار الرئيس البشير أنه لو بادر إلى أحداث جريمة إبادة جماعية سندمر أنابيب نفطه وسوف لن نسمح له بتصدير البترول. نعم فسوف تمثل ذلك لعبة خطرة، لكن الإستراتيجية الحالية لم تبدو صالحة، وسوف تكون النتيجة حدوث أعمال إباديّة جماعية كان بإمكاننا منعها.

تحالف أنقذوا دارفور (The Save Darfur Coalition)

وإذا كان كريستوف هو منظر قضية دارفور في الإعلام الأمريكي فإن منظر القضية في الشارع الأمريكي والمدارس الابتدائية والثانوية وبين النوادي الرياضية والمؤسسات الترفيهية هي حركة أو تحالف أنقذوا دارفور(Save Darfur. Coalition) فبين ليلة وضحاها أصبحت هذه الحركة ظاهرة ثقافية فرضت نفسها على عقلية الشارع الأمريكي فلم تخل مدرسة من خلية لها، وانتشرت شعاراتها بين طلاب الجامعات، وتبناها بعض نجوم كرة السلة الأمريكية، ونجوم أفلام لهوليوود وقد سافر بعضهم إلى تخوم تشاد والسودان ورجعوا بصورة تضفي شرعية على شعارات النجدة التي كانوا يرفعونها.

وهذا التحالف يعرف نفسه كمظلة تتضمن ١٨٠ جماعة مختلفة بعضها دينية وأخرى سياسية وجلها منظمات غير حكومية تعنى بحقوق الإنسان ويجمعها هدف واحد وهو إيقاف الجرائم في ولايات دارفور الثلاث.[١] ويقدم التحالف نفسه في عبارة واحدة مفادها أننا «نقف معا موحدين أصواتنا لأجل نشر الوعي ولأجل بلورة رد قوي تتوقف بمقتضاه الأعمال الوحشية التي ترتكب ضد الدار فوريين.»

ومن الناحية التاريخية يرجع تأسيس هذا التحالف إلى ١٤ يوليو عام ٢٠٠٤ في مؤتمر دارفور الطارئ الذي عقد في مدينة نيويورك بدعوة من متحف الولايات

(١) راجع موقع التحالف الرسمي في http://www.savedarfur.org

المتحدة الأمريكية لذكرى مجزرة اليهود United States) Holocaust Memorial Museum) ومنظمة الخدمة العالمية الأمريكية اليهودية ((American Jewish World Service ، ومنذ ذلك الوقت فقد نما هذا التحالف باضطراد، حيث انضمت إلى صفوفه المنظمات الكنسية وجماعات الضغط لأجل حقوق السود، كما أصبح همزة الوصل بين المنظمات العاملة في المجال لإنساني. ونجاح التحالف بين أطفال المدارس وطلاب الجامعات لم أقرأ مثيلا له في لتاريخ الحديث. فقد طرق، وبكل لطافة، على ضمير الإنسان الأمريكي المعروف بحبه نجدة المستضعف وبالأخص في إفريقيا.

والمتأمل للشخص الأمريكي يجد عنده ما يسميه البعض «White Guilt» شعور الإنسان الأبيض بالذنب «الضميري» أو سمّه بالإثم الأخلاقي تجاه الإنسان الأسود وهذا موضوع تناوله الدارسون السيكولوجيون بكل تفصيل.[1] وهو تعبير يلخص الشعور الجماعي للبيض تجاه الملونين السود، وهذا الشعور بالذنب يذكر ضمير البيض بآثام أجدادهم الانتهازية العنصرية تجاه السود، والتي بمقتضاها يتمتع جيلهم بخيرات الدنيا بينما يقبع السود تحت وطأة تبعات هذا التاريخ.[2] وهذه حقيقة ظاهرة لمن يقرأ الشارع الأمريكي أو يشاهد الحياة الفكرية الأمريكية في شاشات التلفزيون. فالبيض يتحاشون الحديث عن مواضيع العنصرية أو العلاقات بين الأجناس في أمريكا، وقلما يناقشون السود وجها لوجه في هذا المجال. لأنّ شواهد السود كثيرة وحججهم ثقيلة نادرا ما ترى من يحاول إنكارها أو تجاهلها.

هذا الامتداد السيكولوجي لتاريخ العلاقة بين السود والبيض والذي خرج منه

(1) Lisa Spanieman, «Psychosocial Cost of Racism to White Scale.» In Journal of Counseling Psychology: 51 (2), p.249-62.
(2) Shelby Steele, White Guilt: How Black And Whites Together Destroyed the Promise of The Civil Rights Era. New York: Harper Collins Publishers, 2006.

السود خاسرين زينة الحياة بينما خرج منه البيض مجرحي الضمير، خلق أرضية خصبة لاستثمار بضائع تحالف أنقذوا دارفور، فسرعان ما اجتذبت للصورة التعسة من غرب السودان أطفال المدارس وطلاب الجامعات الأمريكيّة ، فالتفوا حولها.

ففي ذروة هذه الحملة بين عامي ٢٠٠٤ و ٢٠٠٧ كان أطفال المدارس في كثير من الولايات يقفون في الطرقات والشوارع العامة جامعين التبرعات من المارة لصالح نجدة دارفور، وفي الأحياء الراقية تغسل البنات سيارات أهل الحي مقابل دراهم ترسل لنجدة أهل دارفور. وفي ميدان كرة سلة القدم، أحد أشهر الرياضات الأمريكية، ينظم النجوم المشهورون مثل تريس ماككرادي Tracy McGrady فريقا من النجوم لنجدة أهل دارفور. وفي مجال السينما و عالم الشهرة في هوليوود، يجند النجوم العالميون أنفسهم للضغط على البيت الأبيض و دعوة المجتمع الأمريكي لدعم قضية دارفور. فمثلا تقوم مجموعة من نخبة الممثلين المشهورين مثل جورج كلوني، وبراد بيت، ومات دامون بوضع منظمة Not in Our Watch«» ومعناه «لن تتكرر الإبادة تحت أنظارنا» في خدمة قضية دارفور ولأجل أخذ حكام الخرطوم إلى محكمة العدل الدوليّة.

وفي المجال الفني الترفيهي، ينتج خبراء الألعاب الإلكترونية لعبة إلكترونية تحت مسمى «هكذا تموت دارفور Darfur is Dying» وهي لعبة يمكن لكل شخص عنده كومبيوتر وانترنت قضاء ساعات في غياهبها، وغرضها وضع اللاعب في معية لاجئي دارفور الذين تنهار عليهم المحن من كل صوب من جراء غارات هؤلاء العرب الرعاة المتوحشين.[1] وحين ينهي الشخص هذه اللعبة يشعر بعبء ثقيل عليه تجاه نجدة هؤلاء المساكين في دارفور. وبديهي القول إنّ هذا التخطيط الدقيق وما يجر من أرباح مادية للمنظمين يعكس العقلية التسويقية الجبارة الواقفة وراءها.

(١) و يمكن مشاهدة اللعبة في هذا الموقع/http://www.darfurisdying.com

وأهداف التحالف بسيطة ومتناغمة مع النفسية الأمريكية، لخّصها التحالف بالآتي:

١- إنهاء العنف الموجه ضد المدنيين؛

٢- ورفع العقبات أمام توصيل المساعدات الإنسانية؛

٣- توفير جوّ سليم وآمن لرجوع المشردين إلي بيوتهم؛

٤- تشجيع النمو المستديم لمنطقة دارفور؛

٥- إخضاع الجناة للمساءلة القانونية؛

طبعا، يدرك القارئ أن النقطة الأخيرة من هذه الأهداف هي ما وكله التحالف إلى المحكمة الجنائية الدولية، وهي أيضا ما فسره بعض قضاتها بالجرائم الإبادية ضدّ الرئيس السوداني.

ومع أنّ الحركة أمريكية النشأة، فإن قدراتها التنظيمية، وعدم وجود موجات معاكسة لها وانغماس الشارع العربي والإسلامي فيما كان يجري في العراق، سهلت لها الطرق في بناء تحالف دولي ينضم في صفوفه العديد من مؤسسات المجتمع المدني في أوروبا وإفريقيا لهدف الضغط على المؤسسات الدولية والقطرية لمساندتها وتبني أجندتها. وقد أكون مخطئا إذا استثنيت المؤسسات العربية أو الإسلامية من مساندة هذا الائتلاف فقد انضم إلى صفوفه كل من المؤتمر الإسلامي الأمريكي (The American Islamic Congress والمعهد العربي الأمريكي(The Arab American Institute) وحتى الجمعية الإسلامية في أمريكا الشمالية (ISNA)، وكلهم لهم وزن فكري وسط المثقفين العرب والمسلمين الأمريكان.

وقد نجح التحالف سياسيا حين قاد حملة مليون صوت لأجل دارفور. وكانت حملة لإرسال مليون واحد من البطاقات البريدية إلى الرئيس جورج بوش طالبين منه دعم إرسال قوات دولية مدججة لحماية المدنيين في دارفور. وفي ٢٩ من يونيو

٢٠٠٦ اختتمت الحملة بتولي عضوي مجلس الشيوخ وهما هيلري كلينتون الديمقراطية، وبيل كرستوفر الجمهوري، توقيع بطاقتي البريد رقم مليون وملیون وواحد وإرساله إلى الرئيس بوش، وكذلك حشد التحالف مائة ألف شخص في ميدان ناتيونال مول بواشنطن في يوم ٣٠ أبريل عام ٢٠٠٦م مطالبين الحكومة بعدم معارضة توكيل الأمم المتحدة إرسال قوات متعددي الجنسيات للدفاع عن المدنيين في دارفور. ولا نحتاج إلى القول بأنّ هذا فعلا ما حدث بعد اجتماعات الأمم المتحدة والإتحاد الإفريقي والتي بعدها أسند مهام حفظ السلام إلى قوات تمولها الأمم المتحدة وإن بقيت القوات إفريقية في صمميها وإدارتها.

السنوات التي امتدّت بين عام ٢٠٠٦ وعام ٢٠٠٨ كانت زهرية لهذا التحالف. فخلالها تمكن من صياغة مسار الأحداث خارج دارفور وخلق جوّ أعطى الشرعية لكل من هبّ ودبّ باسم دارفور. وقد استفاد منه المتمردون الموجودون في دارفور وكذلك اللاجئون المقيمون في الغرب. وفي ذلك يقول مبعوث الرئيس بوش إلى السودان اندرو ناتسيوس (Andrew Natsions) لجريدة واشنطن بوست في ١ يونيو عام ٢٠٠٧م «إن تحالف أنقذوا دارفور تمكن من الحفاظ على موضوع دارفور أمام الجمهور وبطريقة لم تعهد بها في العلاقات الدولية منذ الحملة المناهضة لنظام أبارتايد في جنوب إفريقيا.»[١]

وقد ازدادت الحركات الناقدة للتحالف في عامي ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ من الأكاديميين وبعض الصحفيين الذين اكتشفوا أنّ من ضمن ١٥ مليون دولار جمعت كتبرعات للتحالف عام ٢٠٠٦ لم يصل منه ولو دولار واحد إلى المتضررين في دارفور.[٢] وعلى كل، فما زال التحالف قائما بأجندته، وربما وجد نفسه في وضع سياسي أحسن في عهد أوباما. لأنّ الرئيس أوباما وصل إلى السلطة على عواتق

(1) Washington Post, June 1, 2007.
(2) New York Times, June 2, 2007.

المتطوعين ولجان المجتمعات المدنية التي لها علاقة عضوية بتحالف دارفور، وسفيرة إدارة أوباما لدى الأمم المتحدة أو مجلس الأمن الدولي، وهي سوزان رايس، تعتبر من هذه الصقور التي طالما نادت بمعاقبة الجناة في دارفور حسب تعليمات تحالف أنقذوا دارفور.

هذه هي صورة السودان في الذاكرة الأمريكية الحديثة، وبالأخص خلال العقد الماضي ساهمت في خلقها قوى متعددة معظمها التحق بالركب لغياب بديل أو لعدم وجود أدلة مناقضة لتلك المطروحة على الساحة. إنّ عدم معرفة العالم الخارجي لما كان يحدث في دارفور أثناء الحرب الأهلية لم يكن مهما للكثيرين من الذين دعموا القضية لأنهم يعرفون أن هناك حروبا أخرى ضارية و دامية في العراق وأفغانستان. لكن المهم لدى الكثيرين منهم أن صور الضحايا وصدى التشرد، ودقات الاستغاثة من هذه المنطقة غزتهم في بيوتهم وصحفهم ومدارسهم ومقاهيهم ومراقصهم، مما جعلها حقيقة واقعية فوق الحقائق الأخرى الغائبة أو بالأحرى المخفيّة من الإعلام.

ملاحظات ختامية

■ ■ ■

وفي ختام هذه الدراسة، تختلج في ذهننا عدة أسئلة بدأنا البحث في بعضها وها نحن على مشارف نهاية البحث وما زلنا نتصارع مع بعضها: هل من علاقة بين السودان و أمريكا، والإسلام؟ هل كان من الممكن فضّ هذه العلاقة المفروضة على الدراسة في بحثين مختلفين أو قل ثلاثة؟ هل كان من الممكن ربط السودان بأمريكا عبر وسيلة أخرى غير دينية؟ كل هذه التساؤلات جائزة، وممكنة في مجال الجرح والتعديل العلميين. لكنه أيضا يصح القول بأنّ كل من يتأمل في طيّات هذه الدراسة سوف يلمح جوانب هذا التداخل في ثنايا هذا النقاش. أقصد القول هنا، أنّ هناك علاقة متعاضدة بين الغبار السياسي لمحيط على كل من السودان وأمريكا، وعلى الأقل في هذا العهد الحديث. وهذا الغبار السياسي أيضا يغطي الإسلام.

من ناحية التحليل السياسي لأمور السودان الداخلية، قد يصح القول بأنّ أمريكا وجدت نفسها فجأة في مواجهة تيّار معارض من نوع غير معهود به في التاريخ السياسيّ الحديث. إنّ السلفية الجهادية صاغت أيديولوجيتها في جماع من الاجتهادات الإسلامية المتشتتة، و بناءا على هذه الاجتهادات تكتنف هذه الحركة الجهاد المسلح كمنفذها الوحيد إلى حل قضايا الاختلاف والاحتلال وانتقال السلطة. وعلى الجانب الآخر، ومع اختلاف الإسلام السوداني من ذاك الذي أشرنا إليه مسبقا، بقي موضوع إشراك الإسلام في صناعة القرار السياسي السوداني مصدر إشكالية لاستقرار الحكم واستتباب الأمن في أرجاء البلاد.

الحديث هنا ليس فقط عن قيام الدولة الإسلامية في السودان عام ١٩٨٩، لكن اختلاف أنصار الحكم الإسلامي في الخرطوم كان له صدى في غرب البلاد

وجنوبها. إن هذا الصدى الذي ساهم في مشكلة دارفور كما صاغ الموجات الجديدة في الجنوب، هو أيضا ما تتصيده و تنتهزه المواقف السلبية الحالية في أمريكا تجاه السودان.

ومن ناحية التحليل السياسي العالمي يصح القول بأنّ الاتجاهات الجديدة في السياسة الدولية ليست في صالح الدول القطرية والمركزية، بل إنّ السلطة السياسيّة طفقت تنفلت من أظافر الدول القوميّة المركزيّة إلى أيدي المجتمعات المدنية ذات البعد الدولي. فالمواطنة لم تكد قائمة فقط على المفهوم التقليدي، بل توسعت، عند البعض ليضم كل من له اهتمام بالقضية بغض النظر عن حدود الدولة التي تقع فيها هذه المشكلة. فمثلا هؤلاء الشباب والشابات الأمريكيون الذين كانوا يقفون في الطرقات، ويسهرون أمام أسوار مقرّ الأمم المتحدة رافعين لافتات «أنقذوا دارفور» يعتبرون أنفسهم مواطنين للعالم(Citizens of the World)، وأنّ حدود الدول أو سيادة السودان لا تمنعهم من تحمل مسئولياتهم في المواطنة العالميّة. وظاهرة المواطنة العالميّة عبر الحدود التقليدية أو رغما عنها تسندها الدراسات الحديثة. فالعالم السيكولوجي البريطاني برايان تورنر (Bryan Turner) يرى أنّ مفهوم المواطنة التقليدي الذي كان يبرر المواطنة عبر ثلاث مزايا: حقوق العمل المضمونة في البلد، حقوق الدفاع عن البلد، شرف الولادة في البلد قد انحلّ تحت التطورات التكنولوجيّة الجديدة للعولمة. فيرى برايان أنّ التطورات التي حدثت منذ ١٩٩٠ في مجال التكنولوجيا والإنترنت والعولمة قد أوقفت صيرورة المواطنة التقليدية وبدلها بمفهوم جديد ليس قائما على صدفات تاريخية مثل الولادة والعمل أو الخدمة العسكرية، لكنه قائم أيضا على مشاريع و مشاعر مشتركة سواء كانت حقيقية أو وهمية.[1]

(1) Bryan Turner «The Erosion of Citizenship.» In British Journal of Sociology. June, 2001: 189.

في ظل هذه التطورات لمفهوم المواطنة يشغل مساندو دارفور فضاءا سياسيا مشتركا هو في ظل العولمة والشبكة العنكبوتية ليس أقل شأنا من المواطنة التقليدية السودانيّة. إنّ فضاء الإنترنت وفيسبوك ويوتوب وفيليكا وغيرها من مجتمعات الانترنت يمثّل برلمانات عبرها تعطى الحوافز للسياسيين في الغرب، وأصواتا وأوامر لمتخذي القرارات الدولية في الأمم المتحدة، البنك الدولي، المحكمة الجنائية الدولية و هكذا دواليك. هذه التجمعات/ البرلمانات الجديدة صنعت التجمعات الافتراضية ((social network، والتي ليست أقل شأنا من المجتمعات الواقعية. فقوة المجتمعات الواقعية (المجتمعات الموجودة على أرض الواقع)، كما يذهب إليه بعض الباحثين،[1] تعتمد على امتداداتها في المهجر عبر التجمعات الافتراضيّة.

ومجتمعات المهاجر هم أساس المجتمعات الافتراضية، وهذا واضح و ملموس في قوة الأقباط الحالية في مصر، قوة مهاجر الأكراد في صنع القرار العراقي الكردي، وقوة المهاجر الإيرانية في تهشيم الثورة الإسلاميّة وقوّة المهاجر الصومالية في الاقتصاد الصومالي، وقوّة المهاجر السيريلانكيّة في دعم حركة الانفصال في سيريلانكا والأمثلة كثيرة. وكذلك قوّة المهجر السوداني الجنوبي في الهيمنة على أهداف الحركة الشعبيّة السودانيّة. فهناك آلاف المواقع التي تساند فتيان السودان المفقودين، ويملك هؤلاء الفتيان مئات المؤسسات الإنسانية المدعومة من قبل هذه المجتمعات الافتراضية. وليس هناك شكّ أنهم هم النخبة في مستقبل الحكم في الجنوب. فالمساند لقضية دارفور أو المتعاون للحركة الشعبية يجد فضاء رحبا يجمع مواطنين من خلفيات متعددة.

(1) See Liisa Malkki, Purity and Exile: Violence, Memory and National Cosmology Among Hutu Refugees In Tanzania. Chicago University Press, 1995; William Reno, «The Changing Nature of Warfare and the Absence of State-Building in West Africa». In Irregular Armed Forces and Their Role in Politics and State Formation. Edited by Diane Davis et al . New York: Cambridge University Press, 2003.

والنقطة الثالثة والأخيرة في هذا الختام، هي أنّ نجاح الحركات المناهضة لحكومة الخرطوم سواء كانوا مع تحالف أنقذوا دارفور، أم في معية فتيان السودان المفقودين إنما سهله قصور الخرطوم في طرح بديل فكرى لخطاب التهميش الذي تبنته هذه الحركات. أو بأسلوب آخر عجز الخرطوم عن تبني آليات أخذ وعطاء تناسب التطورات الراهنة في الساحة الدوليّة. إنّ غياب الطرف السوداني من إعطاء ردّ مفعم وسريع في ظل اتهامات تحالف أنقذوا دارفور اضطر بالمنظمات الإسلامية الأمريكية المعروفة بمناصرة العالم الإسلامي مثل ISNA و CAIR مثلا، إلى الانضمام للتحالف.

لقد خلقت العولمة عالما مترابطا ومتشابكا لا يتحمل الفراغ في فضاءاته المترامية. إن ما يميز عصر العولمة من العصور الغابرة هو السرعة والكثافة اللتين بهما تنتقل الأفكار والسلع عبر الأقطار والقارات. فكما يقولون بالإنجليزية إنه عالم إذا لم «توفِّر المعلومات المطلوبة وبالسرعة المطلوبة، سيوفره الآخرون لك.» وهذا يعنى أن أرباب الأقلام، والصحفيين والأكاديميين والعاملين في مجال العون الإنساني يتنافسون في عالم المعلومات؛ وحين تتباطأ أم تتقاعس الجهة الأخرى من الاستجابة أو المشاركة في نقاش ما، تتولى جهة أخرى توفير هذه المعلومة. لأجل هذا تستضيف الفرق العسكرية الأمريكية مراسلين صحفيين معهم في العراق وأفغانستان، كما يعينون ناطقين رسميين لهم لمخاطبة الجمهور. وهو نفس الإطار الذي جعل السياسيين الأمريكيين يستصحبون الصحفيين كما يستصحبون رجال الأمن الخاصة بهم. فعجلة الحياة في عالم المعلومات سريعة لا تتحمل الانتظار. ماالذي يحدث في دارفور؟ سؤال لا يمكن تطبيقه على القاهرة، أم باريس، أو نيروبي، أو داكار أو حتى على باكستان. لأن هناك آلاف المتخصصين عن هذه الأماكن، ومئات الأفراد المعلومين دوليا ويرجع إليهم الإعلام، و يستشيرهم الناس في قضايا تلمس هذه

البلاد أو مواطنيها.

وحسب تحليلي لهذه المشكلة في السودان، أجد هناك سببين:

أولا، النقص الحاد في أمريكا من خبراء أكاديميين عن السودان. فالحصار الأمريكي على السودان والردّ السوداني بالتشديد على منح تأشيرات الدخول إلى البلاد لكل من يحمل جواز سفر أمريكي خلف جوّا غير جذاب للمخلصين المهتمين بالعلم والبحث العلمي. وبالتالي، استأثرت المنظمات لإنسانية وإرساليات الكنيسة بالمجال السوداني ناطقين باسم سكان الجنوب والشمال، وكاتبين عن دارفور ومشاكلها. فمعظم الكتب المتوفرة عن دارفور خلال السنوات الخمس الماضيات لم ينتجها الأكاديميون، فمعظمها كتبه الصحفيون والمستشارون في المؤسسات الدولية والعاملون في الجمعيات الإنسانية. ومهما يُقَال عن الأكاديميين، فهم أقرب الكتّاب الغربيين إلى الصواب بحكم التحكم الداخلي وبحكم المزاملة الخارجية و احترام المهنة الذي تفرضها المؤسسات العلميّة.

ثانيا، الثورة في عالم المعلومات جردت حكومات العالم الثالث من السيطرة على الأحداث، والمبادرة البناءة في توجيهها. فعالم المجتمعات العنكبوتية حقيقة مثل باقي الحقائق الملموسة؛ فمن خلال سنتين بعد تأسيس فيسبوك في فبراير عام ٢٠٠٤ انضم إلى عضويتها خمسون مليون شخص، وهذا الحدث يمثل أسرع تجمع إنساني في التاريخ البشري، ومثل فيسبوك في الأهمية هو يوتوب، تويتر، ماي إسبيس My space و إيميل. إنّ السلطة السياسية الفعّالة في هذا العصر الحديث تستوجب التحكم، ولو إلى حدّ ما، على هذه التقنيات. هل تمكنت الخرطوم من التعبير عن منظورها وبلغات عالمية حول هذه القضايا العالقة؟

ويمكن لنا وضع هذه النقطة الأخيرة في إطارها النظري. يذهب الكثيرون من الدارسين إلى أن الانفجار المعلوماتي الإلكتروني أفرز نظرية النظام العالمي (World

System Theory)، ومفادها أنه يكرّس التقسيم التقليدي للعالم إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الجوهرية وهي التي تنتج الأفكار والخبرات، والمجموعة شبه الجوهرية، والمجموعة القاطنة على المشارف، وأنّ المجموعتين الأخيرتين ليس لهما إلا استهلاك منتجات المجموعة الأولى التي تحتجز رأسمال التقنيّة ووسائل إيصال المعلومات. ويفضل آخرون استخدام نظرية الاستعمار الإلكتروني Electronic Colonialism Theory (ECT) ومعناها أن هذا العالم المعلوماتي هو عبارة عن شبكة عالمية تستعبد كل من يشارك في نظام الحياة المعلوماتي، وأن استيراد هذه الشبكات يعني أيضا الاعتراف بقيمها الدينية والاقتصادية والسياسية.

وعلى كل، فالشبكة العنكبوتية أصبحت جزءا من الحياة في كل نواحيها السياسية والثقافية والاقتصادية؛ والحكومة الراشدة تفترض نوعا من الانسجام المصلحي مع هذه التقنيات. فكما يوصي المفكرون، لا تحاربها، لكن كن جزءا منها. وهذا ما نجح فيه الصينيون والإيرانيون في مواجهتهما مع الغرب، وهذا أيضا ما تحتاج إليها الخرطوم لترميم صورتها المشوهة.